

توظيف التراث في ديوان "الزمن الأخضر" لأبي القاسم سعد الله

The implementation of heritage in abilkacem saadallahs diwan azzaman alakhdhar

طالب الدكتوراه: كمال الدين محبوب
الدكتور: سعد مردف

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة الوادي (الجزائر).
مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقده، جامعة الوادي.
mahboub-kameleddine@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2021/04/01 تاريخ القبول: 2021/06/11 تاريخ النشر: 2021/11/04

الملخص:

أبو القاسم سعد الله علم من أعلام الأدب الجزائري فوق ما كان يكتسبه من ضلوع في التاريخ الوطني، أثرى المكتبة العربية بإنتاجه الغزير في شتى مناحي المعرفة، فهو المؤرخ، والنّاقِد، والقاص، والشاعر أيضًا، خطاً للقصيدة الجزائرية أسلوباً جديداً، ومَهْرها بنمط من التجريب أضاف للمرجعية الشعرية السائدة، مما حدا بنا إلى دراسة ديوانه "الزمن الأخضر" عبر البحث في أجزاء التراث كمكون فني، وجمالي لقصائده، تجلى في استدعاء العناصر التاريخية بأنواعها للتعبير عن المحمول الفكري، والتفسي، والإنساني، تكتنه هذه المقاربة ديوان أبي القاسم سعد الله الشعري لتسائل الرموز، والقيم التاريخية، وتبحث عن ظلالها الفنية .

الكلمات المفتاحية: تراث، شخصيات، أحداث وأماكن تاريخية.

Summary:

Abu al-Qasim Saadallah is one of the great figures of Algerian literature. His contribution to the Algerian national history is beyond recognizable. He enriched the Arabic library with his abundant production in various fields of knowledge. He is a historian, a critic, a storyteller, and a poet as well. He

added his personal artistic touch to the Algerian poetry in a form of a new style. His prevailing poetic reference prompted us to study his collection "Azzaman Alakhdhar" by researching the parts of heritage as an artistic and aesthetic component of his poems. These latter were manifested in the invocation of some kinds of historical elements to express the intellectual, psychological, and human concepts. This approach goes hand in hand with Abu al-Qasim Saadallah's poetic Diwan to question symbols, historical values, and a search for their artistic effects.

Keywords: Heritage, Famous Figures, Main Events, Historical Locations

مقدمة:

أبو القاسم سعد الله من الشخصيات العلمية الجزائرية التي أبدعت في مجالات عديدة؛ حيث كان له باع في الأدب، والتاريخ، والنقد، كما أنه يلقب بشيخ المؤرخين الجزائريين، لذلك جاءت فكرة دراسة توظيفه للتراث، وللتاريخ في ديوانه الشعري "الزمن الأخضر"، والذي يرجع صاحبه عنونته بهذا العنوان إلى زمن شباب الشاعر وزمن الثورة المباركة «يعبر هذا الشعر عن زمنين أخضرين: عهد شبابي وعهد الثورة»¹. والقارئ لهذا الديوان يجد أن أغلب الأشعار فيه نظّمها الشاعر أثناء الثورة التحريرية، لأن هذه الأخيرة كانت ملهمة الشاعر، فلا سبيل له إلا الشعر لتخليد المآثر والبطولات، وقد حاولنا تقسيم الدراسة إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول يتناول تعريف موجز لمعنى التراث، والقسم الثاني لتوظيف الشخصيات التراثية بأنواعها المختلفة، وفي القسم الثالث: وفيه تناولنا توظيف واستدعاء الأحداث، والأماكن التاريخية، وقد برز توظيف الشخصيات التراثية عن غيرها من الشخصيات، والأحداث، والأماكن التاريخية في الديوان، وأما المنهج المتبع فهو المنهج الوصفي التاريخي، باتباع آلية التحليل، حيث تمّ البحث عن عناصر التراث في شعر "أبي القاسم سعد الله"، ومحاولة التعرف على مدلولاتها التاريخية التي حملها الشاعر إياها، فما هي المظاهر التاريخية التي استحضرها الشاعر في ديوانه؟.

أولاً: تعريف التراث:

لقد خاض كثير من الدارسين في الجانب النظري للتراث وتعريفه، لذلك سنكتفي بتعريف لغويّ له، وآخر اصطلاحي.

1- لغة:

جاء في مختار الصحاح «ورث - (ورث) أباه و (ورث) الشيء من أبيه (يرثه) بكسر الراء فهما (ورثاً) و(ورثةً) و(وراثتهً) بكسر الواو في الثلاثة و(إرثاً) بكسر الهمزة. و(أورثه) أبوه الشئ و(ورثه) إياه. و(ورث) فلان فلانا (تورثنا) أذخه في ماله على ورثته»²، فالتراث إذا هو الإرث الذي يأخذه الوارث من الموروث، وخاصة ما ترك الوالد للولد.

2- اصطلاحاً:

التراث يعني ما تركه السابقون للاحقين في مختلف المجالات والميادين؛ فكل ما وجده الإنسان يعتبر ملكاً له، يحق له الأخذ منه والانتساب إليه ويكون في الجوانب الفكرية، والثقافية، والأدبية والفنية ويرى الجابري «أن (التراث)) بمعنى يعني الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي والفني»³.

وقد كانت كلمة التراث تحمل معنى مخالفاً لما تحمله اليوم؛ حيث كانت تدل على المال الذي يتركه الشخص الهالك لأهله، «الواقع أن لفظ "التراث" قد اكتسب في الخطاب العربي الحديث والمعاصر معنى مختلفاً مابيناً، إن لم يكن مناقضاً، لمعنى مرادفه "الميراث" في الاصطلاح القديم. ذلك أنه بينما يفيد لفظ "الميراث" التركية... أصبح لفظ "التراث" يشير اليوم إلى ما هو مشترك بين العرب»⁴، فالأمة أصبحت شريكا في كل ما ترك لها من آداب وفنون، وأحداث، ومباني وعمران؛ فالتراث يرمز للتاريخ وللأصالة، يرمز لتطور أمة، كما يرمز لعذاب أخرى.

ثانياً: توظيف الشخصيات:

وظف الشاعر العربي الشخصيات التراثية مُعبراً من خلالها عن واقعه؛ فقد تكون تعبيراً عن خيبات وانكسارات « وقد تناص الشاعر مع الشخصيات التراثية ليعبر بها عن هزائم الواقع وانكساراته وتناقضاته...»⁵، وقد تكون رمزا للبطولات والانتصارات التي عايشها الشاعر، وفيما يلي سنتطرق لأنواع الشخصيات التي استحضرها الشاعر في ديوانه الزمن الأخضر.

1 - الشخصيات الدينية:

وجد الشاعر العربي المعاصر أمامه موروثاً ضخماً، مُتعدد المظاهر والأشكال، ومن عناصره الموروث الديني « فلم يكن غريباً إذن أن يكون الموروث الديني مصدراً أساسياً من المصادر التي عكف عليها شعراؤنا المعاصرون واستمدوا منها شخصيات تراثية عبّروا من خلالها عن جوانب من تجاربهم الخاصة»⁶، ومن أمثلة الشخصيات الدينية في الديوان قول الشاعر في قصيدة "برقية من الجيل"

استشهد الصديق،
محمد، بطلقة صماء.⁷

نجد أن الشاعر "سعد الله" استدعى شخصية الرسول ﷺ تيمناً بها؛ فكان بإمكانه ذكر اسم آخر، إلا أنه ذكر اسم النبي دلالة على تعلقه بدينه وبرسوله، «وإذا كان ذكر مدح الرسول يقصد منه التبرك به والتقرب إلى الله، فإن وصف أسمائه والإكثار من ذكرها يندرج في هذا الإطار»⁸. فالشاعر يرى أن كل شهيد هو محمد، وكل شهيد استشهد دفاعاً عن الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ، هو امتداد للرسول ولنهجه القويم.

وفي قصيدة "إلى جبل الأطلس" استحضر شخصيات دينية لها مكانتها عند المسلمين عامة، وعند الجزائريين خاصة، وهم أصحاب الفتوحات في بلاد المغرب العربي «وقد يعمد الشاعر إلى شخصيات تاريخية، يرشد الشّباب إلى بطولاتها وأمجادها. وقد يلتبس من صدر الإسلام رواداً، وفي الخلفاء الراشدين مثلاً...»⁹، مثلما قال سعد الله:

وفي كل حر نما في يدك
يغني (لعقبة) مجد السنين
ويطرب طارق في زحفه
على الكافرين
ويذكر (حسان) في جنده
يوطئ للجيل عبر السنين¹⁰

في الأبيات السابقة استدعى الشاعر شخصيات دينية عديدة، كان لها الفضل في نشر الدين الإسلامي في الجزائر، وفي الوطن العربي، فهذا عقبة بن نافع الفهري محقق الانتصارات وقاهر الأعداء «وسار عقبة بجيشه ينتقل من نصر إلى نصر ومن فتح إلى فتح حتى وصل إلى بلاد الزاب»¹¹ ثم ينتقل إلى طارق بن زياد القائد البربري الذي حمل لواء الإسلام، وأدخل الرعب في نفوس أعداء الدين الإسلامي «ولقد حارب طارق بن زياد المشركين في كثير من المواقع، وعلى يده دخل الكثيرون في الدين الإسلامي»¹²، فهذه الأرض الطيبة ولأده، وسيخرج من رحمها من يماثل هؤلاء القادة، ثم يستدعي "سعد الله" شخصية جهادية ثالثة وهي شخصية "حسان بن النعمان" والذي كان له دور كبير في نشر الإسلام في المغرب العربي حيث قام الخليفة عبد الملك بن مروان بتعيينه لقيادة جيش المسلمين لتكملة الفتح بالمغرب «وقد نجح حسان بن النعمان في مهمته حيث اتّبع سياسة اللين مع الحزم بعد الحرب»¹³، والشاعر في موقف تناص مع تلك الشخصيات مستدعياً من خلالها الزمان الجميل، ذلك الزمان الذي انتصر فيه الحق عن الباطل، وبالتالي فقد أعاد أبطال الجزائر مجد أجدادهم، وسينتصرون كما انتصر عقبة وطارق وحسان.

وفي قصيدة "انسانية" يستدعي الشاعر شخصية أمنا "حواء"، وشخصية والدنا "آدم" عليهما السلام رمزي الأخوة الإنسانية:
 اننا اذ ننشر الحب القديم
 ونغني لحن حواء الطريد
 وأبينا العاشق الانسان ذي القلب السليب
 والسلام الأبيض المعطاء دنيا القلوب¹⁴.

في هذا المقطع والذي يعبر فيه الشاعر عن موقف انساني صدر من بعض أبناء فرنسا؛ ردًا منهم على ما تقوم به من جرائم في الجزائر ورفضهم لذلك، استدعى الشاعر شخصية أمنا (حواء) وأبينا (آدم)، قال رسول الله ﷺ في حديث طويل عن ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام: «... وخلق آدم عليه السلام، بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»¹⁵، فالأخوة الإنسانية تجمعنا؛ لأن أصلنا واحد، والشاعر بهذا يعزز تلك الأخوة، ويبين أنه كما في فرنسا مجرمون لا يعترفون برابطة أو أخوة، ففيها من تحلى بالإنسانية ورفض الظلم والعدوان، وأحسن تعبيراً عن هذه الرابطة هو استحضار الأصل الأول متمثلاً في: (آدم وحواء).

وفي قصيدة "يا عام" يستحضر الشاعر شخصيات لا تُرى بالعين، ولها تأثيرات كبيرة على الإنسان، وهي: الشياطين والملائكة:
 أتري حطت بالشياطين لما
 قضى الأمر؟ أم ملائك حطنا
 وحملت السلام للأرض يا عام..¹⁶.

الشياطين والملائكة ضدان متباعدان؛ فالشيطان مخلوق من نار عصى ربه، والملائكة مخلوقات من نور لا تعصي ربه وتفعل ما تؤمر به؛ فوظف الشاعر (الشياطين) رمزا للمحتل الغاشم الذي تمرد وعاث في الأرض فسادا، يفعل في أرض الله ما يغضبه مثلما فعل الشيطان الحقيقي ويفعل إلى أن تقوم الساعة، «والشيطان في لغة العرب يطلق على كل عاتٍ متمرد، وقد أطلق على هذا المخلوق لعتوه وتمرده على ربه»¹⁷، أما (الملائكة) يرمز الشاعر بتوظيفهم إلى أصحاب الأرض الذين لا ذنب لهم إلا دفاعهم عن أرضهم، فهم لم يظلموا أحداً، ولم يغتصبوا أرض غيرهم، ولم يفعلوا ما يغضب ربه، بل فعلوا ما طلب منهم وهو الجهاد، وتطهير البلاد من رجسهم، ومحاربتهم حتى يخرجوا مدحورين مقهورين وذلك ما حدث.

في قصيدة "شك" يستحضر الشاعر شخصية نبي الله "عيسى" عليه السلام، ومعها يستدعي تراثًا سابقًا، وأملًا لاحقًا اقتربنا بشخصية نبي الله عليه السلام:

يا واهب الضياء، يا قمر

يا ناشر السلام، يا مسيح

إليك حفنة الدعاء

وباقة من الحنين والرجاء¹⁸.

استدعى الشاعر شخصية المسيح عليه السلام، والتي ستدشر العدل بعد الظلم، وتطهر العالم من ظلم الدجال «...فَيُنزِلُ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّهُمْ، فَإِذَا رَأَهُ عَدُوُّ اللَّهِ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ، فَلَوْ تَرَكَهُ لَأَتَذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ»¹⁹، فالشاعر متأكد بأن الظلم سيزول، واللَّيل لن يطول، فكما أنه متيقن بنزول المسيح فإنه متيقن من حصول الاستقلال، وتكمن جمالية توظيف شخصية المسيح عليه السلام في التناص الديني معها ومع ما تحمله من معانٍ متنوعة.

وفي قصيدة "صورة":

وأنت تحملين .. تلهمين

قديسة على أرجوحة خضراء

ترتل الغناء والأشواق

وتلهم العشاق²⁰.

في حديث الشاعر مع صورته نجده يجعلها كالقديسة (قديسة على أرجوحة خضراء)، فهذه الصّورة عنده تحمل معنى الصدق والطهارة؛ فهي لا تنافق ولا تظهر إلا الحقيقة والصدق، لذلك شبهها الشاعر بالقديسة.

2- الشّخصيات التّاريخية:

وظّف العديد من الشعراء الشّخصيات التّاريخية، وتباينت أهدافهم في ذلك، فمنهم من استحضر مع تلك الشّخصيات تاريخ البطولات والأمجاد، ومنهم من استحضر الانكسارات والهزائم، ومنهم من جعلها رموزًا لغاية في نفسه، والشاعر أبو القاسم سعد الله من بين الشعراء الجزائريين الذين وظّفوا الشّخصيات التّاريخية، ونجد ذلك في قصيدته "نغم الوداع" والتي نظّمها الشاعر عند توديع طلبة معهد ابن باديس وهم متجهون للعراق قائلاً:

فامتطيت الفضيا (لدار سلام)

عند مجد النبي ومهد (الرشيد)²¹.

في موقف توديع الشّاعر لزملائه وهم يغادرون تونس باتجاه العراق لتحصيل العلم، وقد كان يتمنى أن يكون معهم، ولكنّ ظروفًا حالت بينه وبين الذهاب، استحضر شخصية (هارون الرّشيد)، «لقد كانت شخصية الرشيد شخصيةً مكتملةً ناضجةً، نجد فيها سمات الحاكم، والعالم، والقائد، والنّاصح، والقاضي، والمرّي، مع سعة الصّدر، وطول الأناة، وصدق التّجارب، وبُعدِ التّظر، وبذلك كلّه صار صاحب الصّيت المدوّي والخطر البعيد»²²؛ فهارون الرّشيد رمز العلم، والتّطور والازدهار، رمز التّقوى والورع، فقد ذكرت كتب التّاريخ أنّه كان يحجّ عامًا ويغزو عامًا، فحقّ للشّاعر أن يستحضر هذه الشّخصية الإسلاميّة في هذا الموقف التّاريخي ألا وهو الهجرة لطلب العلم وتحصيله، في بلد العلم والعلماء.

وفي قصيدة "نجوى العبقريّة" يستحضر الشّاعر شخصيّة عظيمة لها تاريخ طويل مع الكفاح بالقلم، ومحاربة الجهل؛ إنها شخصيّة ابن باديس :

يا ابن باديس ههنا ضافيا

بالنعيم في الخلود والتّهاني²³.

توظيف شخصية (ابن باديس) في أيّ قصيدة، وعند أيّ شاعر له دلالات عدّة؛ فهو الشّمعة التي احترقت من أجل الجزائر وهضمتها، «التّهضة الجزائرية بأنواعها المختلفة من سياسية، وثقافية، وتعليمية، ودينية، تدور رحاها على قطب متين عظيم هو ابن باديس. هذا الرّجل الذي شاء القدر أن يكون من أعظم رجالات القرن العشرين في الجزائر»²⁴، فقد خلّد (ابن باديس) اسمه بأحرف من ذهب في سجلّ التّاريخ الجزائري؛ ويدين له الشّعب والأمة بما قدّمه في سبيل نشر العلم، ومحاربة الجهل؛ فقد عرف بأنّه إذا تحررت العقول من الجهل فإنّها ستحرر من كلّ أنواع الظّلم، وذلك ما حدث بالفعل إذ حقّق الشعب الجزائري حرّيته واستقلاله، بفضل الله أولاً، ثم بفضل رافع لواء العلم والتّهضة في الجزائر.

وفي قصيدة "أغاريد الجمال" يستحضر الشّاعر شخصيّة الشّاعر الفرنسي لامرتين (Lamartine):

وهي عرس (لامرتين) ان سكنت

جاماته (فأبللو) غير مجهود²⁵.

في ظلّ الحديث عن الجمال والأمل يوظّف الشّاعر شخصيّة تاريخية فرنسية، ذاع صيتها في المدائن والدول؛ إنّها شخصيّة (لامرتين Lamartine) الذي قيل فيه: «...وبالشّعر الجميل ملك لامرتين على العرش في ماضي ليس ببعيد عنا، وسيبقى مالكا عليه في المستقبل البعيد...مهما بعد! فلا أعرف في عصر من العصور رجلا أعظم من لامرتين في مصافّ الشعراء»²⁶، ففي هذا الموقف

أراد الشّاعر استحضار هذه الشّخصية الشّاعرة، المتوفقة في نظم الشّعْر، شخصية ناضلت في صفوف الثّورة الفرنسية، ووصلت إلى أعلى المراتب السّياسية، و (لامرتين Lamartine) من الشّخصيات التي أعجبت بالشرق وحضارته، فرأى الشّاعر بأن يجعلها مرافقة له في هذه الجولة مع الجمال والحياة.

في قصيدة "إلى المقصلة" يستدعي الشّاعر شخصية فرنسية:

(روبسبير) .. إلى الجولتين

سنعدم روبسبير

سنحرق هذا الاله! ²⁷.

يستدعي الشّاعر شخصيات فرنسية في شعره، وذلك ليبين زيف الحضارة الغربية، ومنهم (روبسبير Robespierre)، والذي قيل أنه: « إذا كانت هناك شخصيّة من شخصيات الثّورة الفرنسية تجسّد تلك الثّورة تجسيدا كاملا فهي شخصية روبسبير» ²⁸، فهم على الرّغم من أنّه كان شخصيّة ثورية فرنسية بامتياز إلا أنّه تعرض للخيانة، حتى أوصله الأمر للانتحار، فهو عاشق للحرية، وعندما أحس بالصدر قتل نفسه.

وقال في قصيدة "غضبة الكاهنة" يستدعي شخصية المرأة الجزائرية، المدافعة عن أرضها لما تحمله من دلالات القوّة، والعظمة، والكفاح دفاعا عن وطنها:

..وستعرفون

يا غاصبين

من هي قاهرة الرجال

من هي معجزة الخيال

من هي « سيدة » الشّمال

من هي كاهنة الجبال! ²⁹.

يعتزّ الشّاعر بماضيه وبأجداده، ويذكرهم كلّما تطلّب الأمر ذلك فرأينا كيف استحضر عددا من الشّخصيات الإسلامية، والتي كان لها الفضل في نشر الدّين في ربوع هذه الأوطان، ولم يكتف الشّاعر بذلك، إذ نجده يستدعي شخصية (الكاهنة)، والتي كانت تحارب العرب والمسلمين، « ولم تكتف الكاهنة بهزيمة العرب في قلب الأوراس بل تتبعت حسان حتى أخرجته من حدود إفريقية واطمأنت على سلطانها منه ثم عادت ادراجها» ³⁰، ولكنّ الشّاعر استدعى هذه الشّخصية للتعبير عن قوة الشّعب الجزائري، وتمسّكه بأرضه وعرضه مهما كلفه ذلك من ثمن، فكأنّه يخاطب

المستعمر ويزدكره إذا نسي بأن يعود للتاريخ، ويتعرف على أن قوة الوطن تنبعث من قوة أبنائه وحبهم له، والذود عنه في كل وقت وحين.

وفي قصيدة "المروحة" يعود الشاعر إلى حادثة تاريخية هامة في تاريخ الجزائر؛ وهي حادثة المروحة، ومن خلالها يستدعي شخصية "الداي" قائلاً:

انه الريش حرير يتموج

باقعة الورد الندي

في يد (الداي) المتوج

صاحب الأمر العلي³¹.

في قصيدة (المروحة) يستذكر الشاعر السبب الواهي الذي جعلته فرنسا ذريعة مباشرة لاحتلال الجزائر، «وبمناسبة عيد الأضحى الذي صادف 29 أبريل 1827 وقعت ضربة المروحة المشهورة. فقد حضر كالعادة القناصل الأجانب، ومن بينهم دوفال، لهنتة الباشا»³² ولكن لم تكن حادثة المروحة التي وقعت بين (الداي) وقنصل فرنسا هي السبب الحقيقي للاحتلال؛ بل كانت هناك أسباب خفية ذكرها المؤرخون، وبتوظيف شخصية (الداي)، عاد الشاعر إلى تلك الفترة، وما قبلها، وكيف كانت الجزائر تنعم بالخيرات، وكيف أصبحت بعد الغزو الاستعماري الذي قضى على الأخضر واليابس.

3- الشخصيات الأسطورية:

إن توظيف الأسطورة في الشعر العربي ظهر بشكل واضح مع الشعر الحرّ، وهناك كثير من النقاد والدارسين اعتبروا "أبا القاسم سعد الله" هو أول من كتب الشعر الحرّ في الجزائر «لم يكن هناك خلاف حاد حول الشاعر الذي سبق إلى كتابة النموذج الأول من الشعر الحرّ في الجزائر، كالذي حدث في المشرق، فمعظم الباحثين يتفقون على أنه أبو القاسم سعد الله»³³، ومن الشخصيات الأسطورية التي وظّفها سعد الله في شعره نجد شخصية "فينوس Venus" في قصيدته "أغاريد الجمال":

هذا ربيعك يا فينوس) فاهتبي

عرس الطبيعة واسبي بالعناقيد³⁴.

يلجأ الشعراء في بعض الأحيان علاوة على توظيف الشخصيات التاريخية إلى توظيف الشخصيات الأسطورية، وذلك ما وجدناه عند الشاعر (سعد الله) وظّف شخصية (فينوس Venus)، والتي تعرف كذلك باسم الآلهة (أفروديت aphrodite)، «وتعرف عند الرومان باسم فينوس ربة العشق والجمال، وقد صورها الإغريق بقوام ممشوق وجسد يتفجّر أنوثة»³⁵، فقد

وظّفها للتعبير عن الجمال الذي يراه، وعن الإحساس بالأمل الذي تملكه، في هذه الفسحة الجمالية.

كما نجده يستحضر شخصية أسطورية أخرى (أبوللو appollo) في القصيدة السابقة نفسها، في قوله:

وهي عرس (لامرتين) ان سكنت
جاماته (فأبللو) غير مجهود.³⁶

وترمز هذه الشخصية للشباب والشعر، والموسيقى « عرفه الرومان باسم فيبوس (رب النور) أما عند اليونان فكان -أيضا- رب الشباب والشعر والموسيقى فهو الذي أوجد القيتارة وقد ولد مع أخته أرتميس من أمها ليتو من زيوس»³⁷، فاختارها الشاعر لتكون رمزا عن سعادته، وفرحته، التي هو فيها، أو ينتظرها.

ثالثا- توظيف الأحداث والأماكن التاريخية:

إن القارئ والمتصفح للشعر الجزائري، قديمه ومعاصره يجد توظيفا للأحداث والأماكن التاريخية، ومن خلالها العودة إلى الماضي تمجيذا له واستنهاضا لهمم، أو تذكيرا بما فعله الغزاة المحتلون بأبناء الجزائر، أو بإخوانهم العرب والمسلمين عبر التاريخ، وبما أن الشاعر "سعد الله" من الذين كان لهم باع طويل في البحث التاريخي، فلا غرابة أن نجد في شعره توظيفا للعديد من الأحداث والأماكن التاريخية .

1- الأحداث التاريخية:

في قصيدة " القرية التي احترقت" يجعل التتار رمزا للمستعمر الفرنسي، فهم لا مثيل لهم إلا التتار رمز الدمار، والخراب « ومن متابعة الرموز القديمة التي استخدمها الشعراء المعاصرون يتبين لنا أن معظم العناصر الرمزية إنما ترتبط بالقديم بشخوص أسطوريين (أو دخلوا على مرّ الزمن عالم الأسطورة)»³⁸، والجرائم التي قام بها التتار أصبحت وكأنها أسطورة من شدة بشاعتها، وما خلفته من آثار تدميرية حيث قال:

هكذا ينتصرون

يشنقون الأبرياء

ويصبون الخراب

كالجراد

كالتتار الزاحفين.³⁹

وظّف الشاعر قوم (التّار) في إشارة لما قاموا به من قتل، وتنكيل، وتدمير لكلّ ما يرمز للحضارة العربية الإسلامية؛ فكذلك تفعل فرنسا بالشّعب الجزائري، محاولة القضاء على كيان الأمة، ومقوماتها، ولكّنها خابت، وخسرت، ففي موقف التّعبير عن حالة الشّعب يتناص الشّاعر تاريخياً مع ما فعله التّار قديماً.

تعرّضت الجزائر منذ العهد القديم لأطماع الغزاة والمحتلين من مختلف الأجناس والشّعوب، لما تمتلكه من موقع هام، ومن خيرات كثيرة، ولكنّ أبطال الجزائر دافعوا عنها بكل ما يملكون، وتمكّنوا من دحرهم، والشّاعر سعد الله في قصيدته "أسطورة الجزائر" يتغنّى بذلك الجمال الباهر لبلاد الجزائر، ومن خلاله يجعل القارئ يعود بذكريته لتلك الأزمنة الغابرة «وقد دأب الكتاب والأدباء الجزائريون بشعرهم ونثرهم، ومن وقت مبكر من هذا القرن على بعث النّخوة بالماضي، والقاء الأضواء على أمجاده، والتحذير من عبث الدّخيل به، والاستنامة لكتابات عنه»⁴⁰، وهو بذلك يستحضر ماض عريق يثبت بطولات هذا الشّعب الأبيّ:

وتوشي بالفن من ريشة

(الأطلس) فازدان بالجمال الجميل

عشقتة (فينيقيا) حين خاضت

لجج البحر حولها الأسطول

وبساط مزخرف من العشب

يرعاه الأفق كرمة ونخيل

وتمنى (الرمان) فيه الحياة

يستوي الصبح عندها والأصيل

وتغنّت مواكب العز (للوندال)

حيناً فشاقتها الترتيل⁴¹.

كما نجد في ديوان الشّاعر استدعاء لأغلب المراحل التاريخية التي مرّت بها الجزائر؛ فاستحضر الاحتلال الروماني، ومن خلاله ما يمثّله من مقاومة جزائرية لهذا المحتل، «إن التاريخ الجزائري على عهد الرومان مملوء ثورات وحروباً»⁴²، كما استحضر العهد البيزنطي، وكيف كان يمكن للبربر أن يقضوا عليهم، «لو لم يعجل الروم البيزنطيون بقدمهم إلى إفريقيا لاستطاع البربر وحدهم أن يقضوا على الوندال ويستقلوا بوطنهم»⁴³. كما استدعى الوندال والفينيقيين، فتاريخ الجزائر حافل بالبطولات، وشعبها شعب مقاوم تصدى لكل الجابرة، وانتصر عليهم عاجلاً، أو آجلاً.

2- المدن والأماكن التاريخية :

بعض الأماكن والمدن يسجلها التاريخ في سجله، لا يمكن نسيانها أو تجاهلها، وذلك يعود غالباً للأحداث التاريخية التي وقعت على بساطها، فأصبحت تذكر كما يذكر الأبطال، شأنها من شأنهم، قد ترمز للانتصار، وقد ترمز للانكسار، والشاعر (سعد الله) استدعى في ديوانه عدداً من الأماكن التاريخية، سنورها، ونحاول استخراج إحياءاتها، ورموزها عنده. ففي قصيدة "طريقي" يوظف "واد عبقر":

سوف تدري راهبك واد عبقر
كيف عانقت شعاع المجد أحمر
وسكبت الخمر بين العالمين
خمر حب وانطلاق ويقين⁴⁴.

وظف الشاعر واد عبقر وما يحمله من أسطورة أنه من مكث به مدة تملكه شيطان الشعر، وأصبح شاعراً، فالشاعر يبين من خلال ذلك نوع الطريق الذي اختاره لنفسه، فقد تملك الشاعر شيطان الشعر وجعله متمكناً من نظمه، كما برع في فنون أخرى، فهو عارف لطريقه الذي رسمه، ومحدداً لهدفه الذي ينشده.

قصيدة "إلى جبل الأطلس":
ويرسي على الشّم نور اليقين
بنوداً تهادى على المفرق
ومجداً يطاول (روما)
و(يونان) في المشرق...⁴⁵.

استدعى الشاعر (الأطلس) وهو رمز التحدي والشموخ، رمز المقاومة والكفاح، كما استدعى مدينة (روما) والتي ترمز للحضارة، كما تشير للاحتلال للجزائر، وللفظة (اليونان) وما تحيل إليه من حضارة وتفوق في شتى المجالات، فالشاعر في جولته بين هذه المدن والحضارات التي يدعها الغرب يرى بأنّها حضارات زائفة تدعي الديمقراطية، ولكنها تضطهد الشعوب، وتغتصب أراضيهم وتجعلهم يعيشون في خوف بعد أمن، وفي جوع بعد شبع، هذه الحضارات التي تضم عكس ما تظهر، فالشاعر كشف ألعيمها، وكذبها المحتجب خلف غطاء الديمقراطية والتطور.

وفي قصيدة "بربروس":
أجب بربروس!

أشعبا تعذبه أم ذباب
وماذا، أنت الجحيم الذي لا يطاق
أ (باستيل) أنت مليوناً جثث

مليئاً بطولة

أعادتك أيدي الطغاه

لتخنق أنفاس شعب يريد الحياة!⁴⁶

سجن (بربروس) ذلك المكان الذي يحكي ألف حكاية عن جرائم الاحتلال، ذلك المكان المليء بالجثث، فقد تعرض فيه الجزائريون لكل أنواع التعذيب والقهر، والإذلال، ولكنه في المقابل يروي بطولة شعب رفض الاستسلام، شعب تواق للحريّة والتحرر، شعب أراد فقرّر، فكان النَّصر حليفه، وسيبقى (بربروس) شاهداً مخلداً لحكاية وحشيّة الاستعمار، وحكاية تضحيات أبناء الجزائر، كما يذكر الشّاعر سجن (الباستيل) والذي كان آخر قلعة تمكن الثّوار الفرنسيون من اقتحامها « فسقوط سجن الباستيل أو قلعة الباستيل في أيدي ثوار الثورة الفرنسية كان أهم علامة مميزة لانتصار الثوار وكان البداية الحقيقية لسقوط المجتمع الاقطاعي في فرنسا»⁴⁷، فبعدها كان هذا السجن رمزا لنهاية الاقطاع في فرنسا، أصبح سجن (بربروس) بداية لعهد الاقطاع في الجزائر.

وفي قصيدة "البعث":

من فم الأطلس نشدو: ثأرنا المنتقم
من فم الأطلس نشدو: يا فلسطين الدم⁴⁸.

في عزّ كلام الشّاعر عن وطنه الجزائر، وثورته ضد الاستعمار الفرنسي، نجده لم ينس (فلسطين) قلب الأمة الإسلامية الجريح، وشرفها المغتصب، فلا يمكن لشاعر وطني أن ينسى فلسطين، فانتصارنا لن يكتمل، وفرحنا لن يتم إلا إذا عاد الأقصى لأصحابه، وقصة فلسطين مع الجزائر هي قصة التوأمة، فلا فرق بينهما عند الشّاعر الجزائري.

الخاتمة:

بعد قراءة ديوان الشّاعر أبي القاسم سعد الله "الزمن الأخضر"، ومحاولة تتبع العناصر التراثية المبتوثة في ثناياه، والبحث عن مدلولاتها ورموزها التي أراد أن يعبر بها عن بعض الأحداث والمحطات التي عالجهها، وأثارت قريحته الشعريّة، تمّ التّوصل إلى مايلي:

* غلبت على الديوان الأشعار الثّورية التّحرّرية، وليس ذلك بغريب عن شاعر يعشق الوطن حدّ النّخاع.

* توظيف الشّخصيات الدينية كانت سمة بارزة مقارنة بباقي الشّخصيات التراثية الأخرى مما يؤكد التزام الشّاعر، واعتزازه بدينه، وبرجالة.

* وظّف الشّاعر الشّخصيات التّاريخية سواء العربية أو غير العربية، وذلك لرمزيتها التّاريخية، ومكانتها العلمية أو التّضالّية التّحرّرية.

* لم يكن توظيف الشّخصيات الأسطورية بشكل كبير في الديوان؛ وقد يعود ذلك إلى الاعتقاد الديني الذي كان يرى بأن الأسطورة مخالفة للمعتقد الديني.

* استحضّر الشّاعر الأحداث والمدن التّاريخية لما لها من إichاءات وعلامات، أراد من خلالها الشّاعر تمرير أفكاره وقناعاته، ولما لها من بعد تاريخي.

وخلاصة القول هي أن توظيف الشّاعر للتّراث يبين تلك العلاقة الوطيدة بينه وبين التّاريخ؛ فلا غرابة أن يوظف شاعر مثله مُختلف المظاهر التّاريخية وهو المهتم بالتّاريخ كدرايسٍ وباحثٍ أَلْف العديد من الكتب التّاريخية التي تتناول تاريخ الجزائر ثقافيا، وأديبا، وتاريخيا.

الهوامش والإحالات:

- 1- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط.)، 1985م، ص7.
- 2- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصّحاح، دار الجيل بيروت، (د.ط.)، (د.ت.)، ص 716.
- 3- محمد عابد الجابري، التراث والحداثة دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1991، ص23.
- 4- محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، ص 24.
- 5- عصام حفظ الله واصل، التّناس التّراثي في الشّعر العربي المعاصر، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2011م، ص152.
- 6- علي عشري زايد، استدعاء الشّخصيات التّراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ط.)، 1997م، ص76.
- 7- المصدر السّابق نفسه، ص 239.
- 8- عبد الله ركيبي، الشّعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981م، ص 60.
- 9- صالح خرفي، الشّعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط.)، 1984م، ص 110.
- 10- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، ص 213.
- 11- محمد محمود القاضي، عقبة بن نافع الفهري فاتح افريقية، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، (د.ط.)، 1999م، ص 40.
- 12- حسين شعيب، طارق بن زياد فاتح الأندلس، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 2004م، ص 12.
- 13- المرجع نفسه، ص 8.
- 14- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، ص 226.

- 15- أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، المجلد 9، المركز الثقافي اللبناني، بيروت، ط 1، (د.ت)، ص 100.
- 16- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، ص 259.
- 17- عمر سليمان الأشقر، عالم الجن والشياطين، مكتبة الفلاح، الكويت، ط 4، 1984 م، ص 66.
- 18- أبو القاسم، سعد الله، الزمن الأخضر، ص 325.
- 19- أبو الحسن مسلم، صحيح مسلم، المجلد التاسع، ص 168.
- 20- أبو القاسم، سعد الله، الزمن الأخضر، ص 334.
- 21- المصدر نفسه، ص 63.
- 22- محمد رجب البيومي، هارون الرشيد الخليفة العالم والفارس المجاهد، دار القلم، دمشق، ط 1، 2000 م، ص 84، 85.
- 23- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، ص 77.
- 24- عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، 1925-1954، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 1983 م، ص 61.
- 25- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، ص 88.
- 26- إلياس أبو شبكة، لامرتين، مؤسسة هنداوي، القاهرة، (د.ت)، (د.ت)، ص 57.
- 27- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، ص 229.
- 28- لويس عوض، الثورة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، (د.ط)، 1992 م، ص 235.
- 29- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، ص 135.
- 30- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 1، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ط 2، 1965 م، ص 181.
- 31- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، ص 205.
- 32- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 3، (د.ت)، ص 24.
- 33- شلتاغ عبود شراد، حركة الشعر الحر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، 1985 م، ص 69.
- 34- أبو القاسم، الزمن الأخضر، ص 88.
- 35- مجدي كامل، أشهر الأساطير في التاريخ، دار الكتاب العربي، دمشق، (د.ط)، (د.ت)، ص 66.
- 36- أبو القاسم، الزمن الأخضر، ص 88.
- 37- مجدي كامل، أشهر الأساطير في التاريخ، ص 66.
- 38- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، مصر، ط 3، (د.ت)، ص 202.
- 39- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، ص 220.
- 40- صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص 99.

- 41-المصدر نفسه، ص 264.
- 42- مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط.)، (د.ت)، ص 282.
- 43-المرجع نفسه، ص 353.
- 44-أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، ص 144.
- 45-المصدر نفسه، ص 214.
- 46-أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، ص 223.
- 47-لويس عوض، الثورة الفرنسية، ص 7.
- 48-أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، ص 238.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، المؤسسة الوطنية للكتاب، (الجزائر)، (د.ط.)، 1985م.

ثانياً: المراجع:

- 1- إلياس أبو شبكة، لامرتين، مؤسسة هندواي، القاهرة، (مصر)، (د.ت)، (د.ت).
- 2- أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، المجلد 9، المركز الثقافي اللبناني، بيروت، (لبنان)، ط1، (د.ت).
- 3- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (الجزائر)، ط3، (د.ت).
- 4- حسين شعيب، طارق بن زياد فاتح الأندلس، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 2004م.
- 5- شلتاغ عبود شراد، حركة الشعر الحر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط.)، 1985م.
- 6- صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط.)، 1984م.
- 7- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، مكتبة الشركة الجزائرية، (الجزائر)، ط2، 1965م.
- 8- عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (الجزائر)، ط1، 1981م.
- 9- عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، 1925-1954، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (الجزائر)، ط2، 1983م.
- 10- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، مصر، ط3، (د.ت).
- 11- عصام حفظ الله واصل، التناسل التراثي في الشعر العربي المعاصر، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2011م.
- 12- عمر سليمان الأشقر، عالم الجن والشياطين، مكتبة الفلاح، (الكويت)، ط4، 1984م.
- 13- لويس عوض، الثورة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (مصر)، (د.ط.)، 1992م.
- 14- مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، (الجزائر)، (د.ط.)، (د.ت).

-
- 15- مجدي كامل، أشهر الأساطير في التاريخ، دار الكتاب العربي، دمشق، (سوريا)، (د.ط.)، (د.ت.).
- 16- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار الجيل بيروت، (لبنان)، (د.ط.)، (د.ت.).
- 17- محمد رجب البيومي، هارون الرشيد الخليفة العالم والفرس المجاهد، دار القلم، دمشق، (سوريا)، ط1، 2000م.
- 18- محمد عابد الجابري، التراث والحداثة دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (لبنان) ط1، 1991م.
- 19- محمد محمود القاضي، عقبة بن نافع الفهري فاتح افريقية، دار التوزيع والنشر الإسلامية، (مصر)، (د.ط.)، 1999م.